# ١٢ - الفـــن

للكاتب الفرنسي بول هيزيل

بقلم الدكتور محمد بهجت

## عن الأمس وعن اليوم (تابع)

« وعلى ذلك ذهبت عنده وعملت منه عدة دراسات سريعة بالقلم الرصاص ليسهل على عمل التمثال فيما بعد . ثم أحضرت منضدتي وشيئاً من الصلصال . ولما كان من عادة الشاعر أن يجلس في البهو مع أصدقائه كان من الطبيعي ألا أجد مكاناً سوى الشرفة أضع فيه تلك الأدوات القذرة . وإنك لتستطيع أن تدرك صعوبة واجبي . كنت أدرس الشاعر العظيم في انتباه كبير وأحاول أن أطبع شخصه في ذاكرتي ثم أجري فجأة إلى الشرفة لأطبع في الطين ما لاحظته والتقطته ذاكرتي من هنيهة . ولكن كثيراً ما كانت تخبو ذاكرتي وأنا في طريقي إلى الشرفة . فإذا ما وقفت أمام المنصة لم أجد في نفسي القوة على لمس الطين . وكان يتحتم علي أن أقفل راجعاً إلى مثالي مرة أخرى . « وعندما قاربت النهاية من عملي سألني دالو ( Dalou ) أن أقدمه إلى فكتورهوجو : فأجبته إلى ذلك في حينه . ولم يعش الرجل العظيم الهمّ بعد ذلك كثيراً. وما استطاع دالو أن يبلغ غايته إلا من سيبية أخذت للشاعر بعد موته » .

قادني رودان وهو يتكلم إلى ظرف من الزجاج بداخله قطعة واحدة من الحجر . إنه الحجر الأوسط من عقد ، الحجر الذي يضعه المهندس وسط العقد ليدعم به منحناه . نحت على واجهته قناع مربع من ناحية الخدين والصدغين ، متمشياً في ذلك مع شكل الحجر المربع . رأيت تحت وجه فيكتور هوجو . وعند ذلك قال المثال الكبير : « كثيراً ما أتخيل مثل هذا الحجر يتوسط بناء يوهب للشعر »

وكان من السهل علي أن أتخيل ذلك . فإن جبين فكتورهوجو وهو يدعم في ذلك الوضع حنية تذكارية فكأنما يرمز بذلك إلى العبقرية التي ارتكزت عليها آراء وجهود عصر بأكمله . ثم عاود رودان حديثه قائلا :

إني لأعطي هذه الفكرة أي مهندس يستطيع أن يخرجها إلى حيز التنفيذ » .

وقريبا منا قام التمثال النصفي لهنري روشفور ، وهو معروف تمام المعرفة ؛ فرأسه رأس ثائر تعلوه خصله شعثاء من الشعر تموج كأنها شارة التسليم ، وبجبينه عجر كثيرة كأنه جبين طفل مشاغب ، دائم الشجار مع أترابه ، له ثغر قلصته السخرية ، ولحية نافرة صاخبة . إنه ثورة لا تهدأ ، وروح النقد والكفاح بعينها . إنه قطعة فنية رائعة نستطيع أن نرى فيها ناحية من نواحي ذهنيتنا المعاصرة . وهنا قال رودان .

« وكانت معرفتي بهنري رشفور عن طريق بازير أيضا ، فقد كان رئيساً لتحرير الجريدة التي يعمل بها . ورضي هذا المناظر الشهير أن يجلس إلي . كان ذا روح مرحة حتى ليحس المرء منه السحر عندما يصغي إليه وهو يتكلم . ولكنه ما كان يستطيع الجلوس ساكنا لحظة واحدة . وكان يؤنبني في رفق لأني أنصرف بكليتي إلى مهنتي ؛ حتى لقد قال لي مرة وهو يضحك إني قضيت جلسة بأكملها في إضافة قطعة من الطين إلى التمثال ، وجلسة أخرى في رفعها عنه .

« وفيما بعد ، عندما رأى أن تمثاله حظي باطراء ذوي الذوق الرفيع وثنائهم جاراهم في ذلك الاطراء غير متحفظ ، ولكنه ما كان يعتقد أن تمثاله ظل على حاله الأولى من ساعة أن حملته من منزله ، وكان يكرر ويعيد على هذه العبارة : « لقد أعملت يدك فيه كثيراً . هذبته تهذيباً . وحقيقة الواقع أني لم أمسسه حتى بظفري » .

وعند ذلك أخفى رودان خصلة الشعر بإحدى كفيه واللحية بكفه الأخرى ثم سألني عما يمكن أن يشبهه إذ ذاك » . فقلت : « تستطيع أن تقول عنه إنه قيصر من قياصرة الروم »

« هذا ما أردتك أن تقوله تماماً ، إذ أني لم أستطع أن أجد الطراز اللاتيني القديم نقياً خالصاً كما وجدته في روشفور »

وإذا لم يجد عدو الامبراطورية الأمة للآن وجود تشابه بين وجهه ووجه القياصرة ، فإني أراهن أن مجرد علمه بذلك سيبعثه على الابتسام

وعند ما تكلم رودان من لحظة عن دالو ، صورت في مخيلتي تمثاله الذي صنعه لذلك المثال والمودع الآن بمتحف اللوكسمبورج إنه رأس متكبر عات يقوم على رقبة رفيعة ممروقة كأنها رقبة طفل . له لحية كثة كأنها لحية صانع ماهر ، وجبهة مغضنة متجهمة ، وحاجبان أشعثان كأنهما حاجبا شيوعي قديم ؛ وهيأة متكبرة محمومة ترى فيها الديمقراطي الذي لا يحول . أما العينان الكبيرتان والتقعر البسيط الذي بالصدغين ، فتم كلها عن الشغف العظيم بالجمال

سألته عن هذا التمثال فأجابني بأنه عمله عند ما عاد دالو من انجلترا بعد أن شمله العفو السياسي وقال :

« إنه لم يأخذه قط ، لأن علاقتنا انصرمت من بعد أن قدمته لفيكتور هوجو بقليل .

كان دالو فناناً عظيما ، ولكثير من أعماله قيمة زخرفية رائعة تجعلها من أجل مجموعات القرن السابع عشر . ولو لم تتملكه شهوة الحصول على وظيفة حكومية لكان كل ما أنتجه قطعاً خالدة ؛ ولكنه جهد ليكون لوبران جمهوريتنا ، وليكون زعيما لكل فنانينا المعاصرين . لقد مات قبل أن تتحقق أمنيته ؟

« إنه ليستحيل على المرء أن يخدم مهنتين في وقت واحد . فكل الجهد الذي بذله لكسب أنصار وأعوان يزكن إليهم ، وفي محاولته أن يكون ذا شأن وخطر — كان كل هذا خسارة للفن . ليس أصحاب الدسائس أغراراً مغفلين ؛ فعند ما يريد الفنان مناهضتهم أو ينهز معهم بدلوهم فإن عليه أن يكيد لهم بقدر ما يكيدون ، وبذلك لا يبقى له وقت ينصرف فيه لعمله .

« ومن يدري فلو كان دالو لزم مرسمه دواماً ومضى في سبيل فنه هادئاً وادعاً لأنتج روائع يخطف جمالها الأبصار ؛ ولربما أجلسه الإعجاب العام على عرش الفن وتوجه ملكا على الفنانين — وذلك هو الذي بذل في سبيله كل ما في وسعه لتحقيقه ، ولكن في غير طائل .

ومع كل ذلك لم يذهب طموحه سدى ؛ لأن نفوذه وحظوته في الأوتيل دي فيل[1] كانا سبباً في إخراج قطعة خالدة من أعظم قطع عصرنا الحاضر . فهو الذي مكن بوفي دي سافان من أن ينال الإذن بزخرفة جانبي السلم بمدخل الأوتيل دي فيل ، وذلك رغم مناهضة أعضاء اللجنة الإدارية مناهضة علنية وأنت تعرف بأي شعر سماوي أضاء المصور العظيم حوائط البلدية » .

وقد استرعت هذه الكلمات انتباهي إلى تمثال بوفي دي شافان Buvis de Chavannes الذي قال عنه رودان :

« لقد رفع رأسه عالياً . أما جبهته فصلبة مستديرة وكأنما خلقت لتلبس خوذة . وأما صدره المقوس فيظهر كأنه اعتاد لبس الدروع . ولقد يسهل على المرء أن يتصوره في باڤيا[2] يحارب ذياداً عن شرفه إلى جانب فرنسيس الأول » .

ترى في التمثال أرستقراطية شعب قديم . فالجبهة والحاجبان المرتفعان تدلان على الفيلسوف . وتشف النظرة الهادئة التي تشمل أفقاً كبيراً بعيداً عن ذلك الزخرف العظيم والمصور الطلي[3] السامي . هذا ولا يوجد فنان معاصر يمكن له رودان من التقدير والإعجاب بقدر ما يكنه لصور القديسة جنيڤيف . ثم صاح رودان:

« أكان هذا الرجل يعيش بيننا ويخالطنا ، أكان هذا المبقري الخليق بأزهى عصور الفن يتكلم معنا ! وإنني شاهدته ووضعت يدي في يده ! ليخيل إليّ أنني صافحت يد نيقولا پوسان ! Nicholas Poussin[4] »

(يتبع)

دكتور محمد مهدي

قسم البساتين

---

(١) دار البلدية بباريس

(٢) بلدة بمقاطعة لمبارديا بشمال إيطاليا .

(٣) الطل الحسن المعجب من كل شيء كالمنظر والماء ونحوه وقد استعملت هذه الكلمة لتؤدي معنى الكلمة الانجليزية landscape والفرنسية paysage . فاذا أقرها المعربون كان بها وإلا فنحن في مسيس الحاجة إلى كلمة خاصة تؤدي هذا المعنى .

(٤) مصور فرنسي عظيم ولد في سنة ١٥٩٤ وتوفي سنة ١٦٦٥